عبد الحميد الكاتب

لم يكن للرسائل قبل عبد الحميد الكاتب حدود معينة ولا قواعد مرسومة يلتزمها الكتاب ؛ بل كان الكاتب يعتمد على سجيته وفصاحته ومـا فطر عليه من البلاغة واكتسبه بالممارسة من البيان . فلما نبغ عبد الحميد وتولى الكتابة في الدولة الأموية ، شرع للكتابة رسوماً والتزم فيها أموراً لم تكن معهودة من قبله ، فاستحسنها الناس ولزم الكتاب طريقته حتى قيل (بدئت الكتابة بعبد الحميد) ، ويعنون بذلك كتابة الرسائل التي تصدر عن ديوان الدولة ، فهو زعيم الأدب الرسمي — إن صح هذا التعبير — وإليه يرجع الفضل في جعل أسلوب الكتابة في الدولة أسلوباً أدبياً عالياً جرت على سننه الدولة العباسية والدول التي استقلت عنها في الشرق والغرب ، حتى تميز تاريخ الأدب العربي بهذا النوع من الأدب الذي يمكن أن نطلق عليه الأدب الرسمي .

التزم عبد الحميد في ذلك النوع من الرسائل التمهيد للموضوع بصور مختلفة تناسب المقام ينتهي منها الى المقصود بمناسبات وثيقة ، والتزم الإفاضة في تعظيم شأن الخليفة وإعلاء أمر الخلافة بالإسهاب والترادف والاستقصاء والتهويل كما التزم البسط في الأمر الذي أنشئت الرسالة من أجله ، فعالجه بقوة البرهان وسحر البيان ، حتى اذا انتصف منه ختم الرسالة بخاتمة تشعر بالانتهاء ، كل ذلك بألفاظ جزلة وتراكيب رصينة تشاكل جلال الخلافة وتلائم عظمة السلطان .

وقد زعم أبو هلال العسكري في كتابيه « الصناعتين » و « ديوان المعاني » أن عبد الحميد اقتبس طريقته عن الفرس فقال : (إن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي) (الصناعتين ص ٥١ وديوان المعاني ج ٢ ص ٨٩) . ولا يمكن القطع بصحة هذا القول لأنه لم يبق من الرسائل الفارسية القديمة شيءٌ يمكن أن يقابل بما بقي من آثار عبد الحميد ؛ ومهما يكن فإن الأناقة المتجلية على رسائله من حيث التمهيد والتقسيم وحسن الترتيب واستقصاء المعنى ورصف الجمل ومرادفتها تميز أسلوبه عمن تقدمه من الكتاب .

* * *

جمع عبد الحميد جميع مؤهلات الكتابة الفطرية والكسبية ، فهو دقيق الملاحظة عميق التفكير بعيد النظر دقيق الحس رقيق الطبع أديب النفس ، مارس العلم والادب طويلاً ، لانه كان في أول أمره معلماً للصبيان ، ثم اتصل بختنه سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه وأحد بلغاء الكتاب والنقلة من اليونانية ، فأخذ عنه الكتابة وتخرج به ، ولا شك أنه نال أوفر قسط من ثقافة زمنه ، فقد تأدب بالقرآن والحديث وروى شعر العرب وكلام بلغائهم وخطبائهم وحذق العربية وأيام العرب والعجم ، وألمّ بالفقه والحساب ، وكان يعرف الفارسية ؛ قال ابن خلكان : « كان عبد الحميد في الكتابة وفي كل فنّ من العلم والادب إماماً » ، وقال ابن عساكر في التاريخ الكبير : « حدث عبد الحميد عن سالم مولى هشام وحدث عن عبد الحميد خالد ابن برمك » ؛ وقيل لعبد الحميد : ما الذي مكنك من البلاغة فقال : « حفظ كلام الأصلع » يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ وقال في رسالته الى الكتاب فيما يجب على الكاتب : « ... قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ... » ، وقال فيها أيضاً : « فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفهموا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، واروا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسموا به همتكم ، ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج ... » أضف الى ذلك عمل عبد الحميد الذي يقتضيه كثرة الإنشاء والمران على الكتابة وما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مرّ عليه من التجارب والاحداث التي فسحت له ميدان الموضوعات وزادته دُربة وحنكة في الصنعة؛ قال أحمد بن يوسف : « رسائل عبد الحميد ألفاظ محككة وتجارب محنكة . »

* * *

وأسلوب عبد الحميد نمط عال في جزالة لفظه وحسن تأديته والانتصاف من المعنى بما لا مَزيد عليه ، فكأن لغة العرب جُمعت في صدره يختار منها ما يشاء ، أضف الى ذلك طبعاً فياضاً ونفساً طويلاً وفكراً ثاقباً وعقلاً راجحاً ، فإذا أراد الإسهاب — وكثيراً ما يسهب — أتى بما لا يخطر على بال ولا يجول في خاطر ، كقوله من رسالة له في الفتنة : « . . . في الخلاف والمعصية ذهاب كل نعمة ، وتفرق كل كرامة ، ومحق كل قنية ، وهلاك كل سلامة وإلفة ، وموت كل عزّ وقوة ، والدعاء بكل بلية ، ومقارفة كل ضلالة ، واتباع كل جهالة ، وإحياء كل بدعة ، وإماتة كل سنة ، وإجلاب كل ضرر على الامة ، وإدبار كل منفعة ، والعمل بكل جور وباطل ، وفناء كل حق ، وبمعصية خليفة الله لا يزال رجل من المسلمين يضرب بسيفه الذي بيديه سيف أخيه الذي كان يعتمد عليه ، ويوهن عضده ، ويهدم حصنه ، ويقل عدده ، ويهلك ثروته ، ويعطب من يدعوه ، ويفزع إليه ، ويكثر بمكانه . . . الخ » مجلة المجمع العلمي ج ٩ ص ٥٢٩ ولا أعرف من يشاركه في هذه المزية إلا الجاحظ . وقد قيل إن الكتاب الذي كتبه عبد الحميد عن مروان بن محمد الى أبي مسلم الخراساني لما قام بدعوة بني العباس كان حمل جمل . وأما استقصاء الوصف ودقة التصوير فالتمسها في رسالته التي يصف بها خروجه للصيد فهي فريدة في بابها تجعل السمع بصراً ، منها قوله : « فإذا نحن برعلة من ظباء : وخلفة آرام يرتعن آنسات ، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا ، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسنا ، فلم نعجّ إلا والضواري لائحة لهن من بعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ، ثم مدت الجوارح أجنحتها ، واجتذبت الضواري مقاودها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها ، ومسرعة الجوارح في طلبها ، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها ، تسف الارض سفّاً ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ، فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يدعو الكلب باسمه، ويفدّيه بأبيه وأمه ، وراكض تحت مُفرّه ، وخافق يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهاب . » والرسالة من أولها الى آخرها على هذا النمط ؛ على أنه اذا حاول الايجاز أتى منه بالمعجز كالرسالة التي كتبها الى عامل أهدى الى الخليفة عبداً أسود وهي : « لو وجدت لوناً شراً من السواد ، وعدداً أقل من الواحد ، لاهديته والسلام . » وكما كتب موصياً بشخص : « حق موصل كتابي إليك ، كحقه علي ، إذ جعلك موضعاً لامله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله » وهكذا فهو يتصرف كيف يشاء ويجوّد في كل حال ولا يتيسر ذلك إلا للكاتب الموهوب .

* * *

وللقرآن والثقافة الاسلامية أثر ظاهر في رسائل عبد الحميد فإنه يستشهد بالآيات ويستعين بمعانيها وألفاظها كقوله في الضحاك الخارجي : « ... يدعو الى المعصية والفرقة ، والمروق من دين الله الى الفتنة ، بغير هدىً من الله ولا بيان ، ساء ما كسبت له يداه ، وما الله بظلاّم للعبيد ، وساء ما سوّلت له نفسه الأمارة بالسوء ، والله من ورائه بالمرصاد ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » ، وكقوله في فتنة بعض العمال : « ... الى نُزُلٍ من حميمٍ ، وتصليةِ جحيمٍ ... وكذلك الله يفعل بالظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

أما الروح الإسلامية فإنها أقوى عنصر في أدبه ، فحمد الله والصلاة على نبيه بصور شتى والاخذ بأدب السنة والوقوف عند حدود الدين والتوكل على الله وتفويض الامر إليه والائتمار بأوامر الشريعة والإكثار من استعمال المصطلحات الإسلامية كالربوبية والوحدانية والفردانية واللاهوتية والرسالة والنبوة والخلافة والإيمان والكفر والجهاد أكثر من أن تحصى في رسائله كقوله : « الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه ، وارتضاه ديناً لملائكته وأهل طاعته من عباده ، وجعله رحمة وكرامة ، ونجاة وسعادة ، لمن هدى به من خلقه ، وأكرمهم وفضلهم ، وجعلهم بما أنعم عليهم من أوليائه المقربين ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحزبه الغالبين ، وجنده المنصورين ، وتوكل لهم بالظهور والفلج ، وقضي لهم بالعلو والتمكين ، وجعل من خالفه وعزب عنه وابتغى سبيل غيره أعداءه الأقلين ، وأولياء الشيطان الأخسرين ، وأهل الضلالة الاسفلين ، مع ما عليهم في دنياهم من الذل والصغار فاعجل لهم فيها من الخذلان والانتقام ، الى ما أعد لهم في آخرتهم من الخزي والهوان المقيم ، والعذاب الاليم ، إنه عزيز ذو انتقام » ومثل ذلك كثير .

وفصاحة ألفاظه وجزالة تراكيبه ثمرة سعة روايته لأدب العرب وبلغاء الإسلام شعراً ونثراً ، قال القلقشندي في صبح الاعشى في فصل حل الشعر ج ١ ص ٣٨٢ : « قال صاحب الريحان والريعان : وأول من فك رقاب الشعر ومرّح مقيّده الى النثر عبدالحميد الاكبر كاتب بني أمية » ، ومن أراد أن يتصور عبدالحميد في صنعته وبيانه ، ورجاحة عقله ونفوذ بصره ، وإحاطته بالمواضيع التي يعالجها من كل نواحيها ، فليرجع الى الرسالة التي كتبها عن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية الى ولي العهد عبد الله بن مروان حين أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي ، فإنه في هذه الرسالة رجل من رجال الدولة مضطلع بأعباء السياسة الشرعية والمدنية العسكرية ، داهية بعيدالنظر صحيح التفكير ، محنك أحكمته التجارب ، بصير برمم الخطط ، عالم بالنفس والاخلاق ، عارف بطبقات المجتمع ، مطلع على ضروب الحياة الاجتماعية . والرسالة ضافية الذيل تقع في ثلاثين صفحة كبيرة يذكر في أولها عناية الخليفة بولي عهده ، واهتمامه بإرشاده ، على ما اتصف به من الخصال الحميدة ، ولكن تقديم العظة والتذكير سنة حسنة ، ويأمره بشكر الله في كل صباح ، وتلاوة جزء من القرآن ، ومجاهدة الهوى ، ومعالجة الأمور بالقصد ، ومداراة الجند بالإحسان ، وكتمان السر ، ومداواة الحقد بالإنصاف ، وتذليل النفس بالعدل ، وتقويم الاود ، والبعد عن العجب ، والرفق والاناءة ، والحلم الى كثير من محاسن الخلال . ويأمره أن يتخذ بطانته من أهل الفقه والورع المجربين المحنكين ، وباصطناع الرصانة والوقار في مجلسه والبعد عن الهزل ، وليكن بعيداً عن الصلف والتيه في موكبه ، وأن لا يسمع سعاية متهم ، ويرسم له آداب مقابلة الوفود ، وأن ينزّه عن سماع الغيبة وعن الخفة في حالتي السرور والغضب ، ثم يذكر ما يجب أن يستعين به عند لقاء العدو من تقوى الله والتوكل عليه واجتناب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تعطيل حدوده ، وتعدي شرائعه ، وأن يثق بنصره ، ويوصيه بتعهد جنده وكف أذاهم عمن يمرون به من أهل الذمة والملة ، وبطاعة الله في جهاد العدو ، ويذكر له أن الظفر مع سلامة الجند أعمّ منفعة منه مع اقتحام الاخطار ، ويوصيه بأن يبدأ بدعاء العدو الى الطاعة وتأمين اللاجئ والوفاء بالعهد ، وبإذكاء العيون وتعرف أحوال العدو وعدم الاستخفاف به ، ويوصيه باختيار قواده وقضاة جنده ، وأن يتعهد خيل الجند وسلاحهم ، وأن يتولى عرض الجند بنفسه ، وأن يهتم بإطاعة الجنود لقوادهم ، وأن يكون القواد رفيقين بالجنود إلا من يفرّ من الجهاد ، ويوصيه بالتزام الترتيب في تقسيم الجيش واليقظة في اختيار منازله والإشراف عليه حين مسيره ، وترتيب الحرس في الليل والنهار ، ورباطة الجأش في حالة الحرب ، وجعل الجيش تامّ العدة مستعداً للقتال ، ويوصيه باختيار أمين لخزائنه كما يوصيه بالاخذ بالمكيدة ، واستدراج العدو بالترغيب والترهيب ، وإلقاء الإحن بين رؤساء الاعداء وقادتهم ، ويوصيه باتخاذ الوعاظ في الجيش يحضون الجنود على القتال ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم .

وهكذا فهي دستور لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بشؤون القائد الخاصة والعامة إلا أحصاها على سبيل البسط والإطناب والتقصي باستعمال المترادف والاكثار من التمثيل واستقصاء المعنى الى آخر حدّ كيلا يبقى غموض ولا إبهام في الخطط التي رسمها لولي العهد في كل شؤونه في مهمته التي عهد بها إليه ملتزماً في كل ذلك صحة التقسيم وحسن الترتيب ، بلغة جزلة لا تضيق بشيء من معاني الرسالة الكثيرة وأوضاعها الرسمية فهي في الحقيقة مثال عال للادب الرسمي .

* * *

لئن دلت رسائل عبد الحميد الديوانية على رجاحة عقله وبعد نظره في السياسة فإن من رسائله الخاصة ما يدل على نفس حساسة وعاطفة رقيقة وأخلاق كريمة ، من ذلك رسالة كتبها الى أخ له يصف سروره بأول مولود ولد له جاء فيها : « ... فإذا نظرت الى شخصه تحرك بي وجدي ، وظهر به سروري ، وتعطفت عليه مني أنفة الولد ، وتولت عني به وحشة الوحدة ، فأنا به جذل في مغيبي ومشهدي ، أحاول مسّ جسده بيدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الظلم ، وتارة أعانقه وأرشفه ، ليس يعدله عندي عظيمات الفوائد ولا منفسات الرغائب » ، ومن ذلك رسالة في وصف الإخاء جاء فيها : « ... أحرز حصن ، وأحصف جنة ، وأعون ظهير ، وأبقى ذخيرة ، وأعظم فائدة ، وأشرف كنز ، وأفخر صنيعة ، وآنق منظر ، وأينع زهرة ، أكثر الأشياء ربحاً ، وأنماها وصلاً ، وأمدّها سبباً ، وأقواها أيداً ، وأحلاها ذوقاً ، وأدعمها ثباتاً ، وأرساها ركناً ... غير منان النصرة ، ولا بزم التعب ، يرى تعبه غنماً ، ونصبه دعة ، وكلفه فائدة ، وعمله مقصراً ، وسعيه مفرطاً ، واجتهاده مضيعاً ، عدل الولد في برّه ، والوالد في شفقته ، والأخ في نصرته ، والجار في حفظه ، والذخر في ملكه ، فأين المعدل عن مثله ، أو كيف الإصابة لشبهه ، وأنى عوض من فُقد ، جمعنا الله وإياك على طاعته ، وألفنا بمحابه ، وجعل إخوتنا في ذاته » .

وهكذا فعبد الحميد استوفى مزايا الكاتب الطبيعية والكسبية ، ولا مر ما لم تلزم صفة الكاتب أحداً من الكتاب كما لزمت عبد الحميد ، فلم يقولوا ابن المقفع الكاتب ، ولا عمرو بن مسعدة الكاتب ، ولا ابن الزيات الكاتب ؛ ولكنهم يقولون دائماً عبد الحميد الكاتب .

خليل مردم بك
عضو المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net